تاريخ المصاحف

هذا ما وعدنا بنشره مما كتبه صاحبنا موسى افندي جار الله الروسي قال

قال العلماء أول ما نزل من القرآن « اقرأ باسم ربك الذي خلق — خلق الانسان من علق » اقرأ وربك الأكرم الذي علم بالقلم علم الانسان ما لم يعلم » ولم ينزل بعده شيء الى ثلاث سنوات (وتسمى هذه السنوات زمن فترة الوحي) ثم أخذ القرآن ينزل في تضاعيف عشرين سنة (وقرآنا فرقناه لتقرأه على الناس على مكث ونزلناه تنزيلا — الاسراء — كذلك لنثبت به فؤادك ورتلناه ترتيلا — الفرقان) فمنه ما نزل مفرقا وهو غالب القرآن ومنه ما نزل جملة كالفاتحة والاخلاص والكوثر وأغلب الانعام . وكلما نزل عليه صلى الله عليه وسلم آية أو سورة وسرّي عنه كان يقرئه الصحابة ما نزل ويستحفظهم فيحفظونه على ظهر قلب ويعتنون بذلك تمام الاعتناء لان الحفظ الحرفي في عصر الرسالة وزمن النزول كان من اعظم العبادات وأقرب القرب وكانوا اذا حفظوا آية من النبي عليه السلام يترددون عليه غير مرة ويتلونها امامه حتى يزداد تثبتهم من حفظها واداتها ويسألونه هل حفظت كما أنزلت حتى يقرهم عليها وبعد إتقان الحفظ والتثبت في تمام الضبط أخذ كل واحد منهم ينشر ما حفظ : كانوا يعلمونه للاولاد والصبيان وللذين لم يشهدوا النزول ساعة الوحي من أهل مكة والمدينة ومن حولهم من الناس فلا يمضي يوم أو يومان الا وما نزل محفوظ في صدور جماعة غير محصورين وقد عين جماعة عظيمة من الصحابة على حفظ القرآن واقرائه وبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم الى المدينة قبل الهجرة جماعة من حفظة الصحابة يعلمون القرآن لاهل المدينة واولادها وكان الرجل اذا هاجر الى المدينة دفعه النبي عليه السلام الى رجل من أولئك الحفظة يعلمه القرآن ، ولما فتح مكة ترك فيها معاذ بن جبل لذلك وكان من أكابر الصحابة — وهم ألوف — من يعتني بتعرف فقه القرآن ومعانيه واتقانه حفظا وكتابة . كانوا لا يأكلون نهارهم ولا ينامون ليلهم باهتمامهم واشتغالهم بضبط الآيات وحروفها ووجوهها وكان يتعهد رسول الله صلى الله عليه وسلم صبية وزجل بتلاوة القرآن وكان النبي يسمع الى الملا منهم ويحمد الله على ان جعل في أمته أمثالهم

وبمثل هذا الاهتمام التام لا يتطرق الى القرآن في صدور الامة ما يخشى أن يؤخذ من

الصحابة في تضاعيف عشرين سنة

وحيث ان القرآن كان ينزل مفرقا منجما ويحفظه الذين يعتنون به على مهل وبمكث في تضاعيف سنوات كثيرة وذلك أعون في الحفظ وايسر للذكر وأكثر من حفظه كان شرع في حفظه من صباه وزد عليه ما كان النبي عليه السلام المعصوم من لسان القرآن من كمال الاعتناء والاهتمام بالترغيب في حفظه والامر بتعاهده — فكل من تأمل أدنى تأمل يتبين ويقطع ان القرآن قد حفظ في الصدور بتمام الاتقان وارسخ الحفظ واتم الضبط وكامل البيان وقد نطقت الاحاديث ودلت الآثار على ان النبي عليه السلام كان يوقف أصحابه على ترتيب آيات السور ويعلمهم مواضعها من السورة نصا وكان يقرأ السورة في الصلوات وغيرها ويسمعونه فيعرفون من ذلك ترتيب الآيات فالصحابة ضبطت عنه عليه السلام ترتيب أي كل سورة ومواضعها كما ضبطت عنه نفس الآيات وتلاوتها . وكان السور مرتبة لحديث أحمد وأبي داود في تحزيب القرآن وحديث وائلة في اعطاء السبع الطوال والمئين والمثاني بدل الكتب الثلاثة السماوية المفصل بالحواميم والمفصل والاحاديث تدل على ان النبي عليه السلام كان يختم القرآن وان الصحابة كانوا يختمون عنده عدة ختمات وكل ذلك يدل دلالة واضحة على ان القرآن كان محفوظا في صدور ألوف من الصحابة مجموعا مرتبا على ترتيب معلوم عند كل واحد منهم . قال معاذ عرضنا القرآن على النبي عليه السلام فلم يعب منا أحدنا

وكان النبي عليه السلام كتبة يكتبون فورا كل ما نزل اليه على الصحائف والقراطيس من الرقوق والاوراق غالبا وعلى الالواح وعسب النخل احيانا . كان النبي عليه السلام يملي عليهم مباشرة يقول ان هذه الآية تكتب عقيب آية كذا في سورة كذا . وكان كتابة ما نزل من القرآن ملتزمة منهم حتى زمن الاختفاء في أوائل الاسلام اذ كان المسلمون يتدارسون القرآن من الصحائف في البيوت وكان المشركون يدعون الفراسة اذ ذاك المينة (١) من شواهده حديث عمر قبل اسلامه مع أخته وختنه

وكانت العرب تكتب كل شيء نفيس أو مهم عندهم كالاشعار الفصيحة والخطب البليغة . من شواهد ذلك القصائد المعلقة والصحيفة التي أكلتها الارضة . وكان كثير من الصحابة لهم علم بالقلم وكان أنس بن مالك يقول هذه أحاديث سمعتها من

(١) المئنة ما كانوا يسمون كل قراءة مينة بل القراءة الخفية والمينة الصوت الخفي

وسول الله وكتبتها وعرضتها، وكثير من هؤلاء كانوا يكتبون في الصحائف كل آية حفظوها ويعرضونها على النبي عليه السلام، وعين من هؤلاء جماعة على كتابة الوحي كانوا متمكنين من الكتابة باللسان العربي كل التمكن كعلي وعثمان وعمر وزيد بن ثابت وابن مسعود وأنس بن مالك وعبدالله بن سلام وغيرهم

فكان النبي يملي عليهم مباشرة فيكتبون ما نزل بحضرته ويعرضونه عليه مرة بعد أخرى حتى يقرهم. بهذه الكيفية كتب القرآن من أوله الى آخره في حياة الرسول على صحائف وقراطيس متفرقة. وكانت هذه الصحائف والقراطيس أغلى عندهم من أنفسهم وأنفس من كل نفيس وأحب اليهم من كل حبيب جليس. يدل عليه احاديث رويناها في تنافسهم في حفظ هذه الصحائف والقراطيس وفي حبهم التبرك بها احياناً في المجالس

وكل ما ذكرته عن شأن حفظ القرآن في الصدور وما أجملته بعد ذلك في كيفية جمعه في الصحائف واثبته في السطور يدل دلالة قطعية باهرة على أن القرآن زمن النبي عليه السلام كان مجموعا مرتبا على ترتيب معلوم، محفوظا في الصدور، مكتوبا على ترتيب الحفظ في السطور، والاحاديث متضافرة متساعدة في ذلك

ولان اعمال الحفظ والكتابة والترتيب من النبي ومن ألوف مؤلفة من الصحابة الذين يتيقنون أن السبب في عزهم وسعادتهم هو القرآن، وانه هو أساس دينهم وشريعتهم، وانه هو الذي يقربهم الى الله عز وجل والذين كانوا يبذلون جميع ما يستطيعون وما يتصوره العقل في سبيل حفظه كما انزل مصونا عن ادنى شائبة الاعمال من مثل هؤلاء — شيء محال لا ريب فيه.

ثم توفي رسول الله يوم أكمل الله لنا ديننا ورضي لنا الاسلام دينا والاسلام قد ظهر في جميع جزيرة العرب وفيها مدن وقرى كثيرة كاليمن والبحرين وعمان ونجد وجبلي طي وبلاد مضر وربيعة وقضاعة والطائف ومكة كلهم قد أسلم وبنوا المساجد ليس فيها مدينة ولا قرية ولا حلة اعرابيا الا وتقرىء فيها القرآن في الصلوات وعلمه الصبيان والنساء وكتب. ومات رسول الله صلى الله عليه وسلم والمسلمون كذلك ليس بينهم اختلاف في شيء أصلا كلهم أمة واحدة ودين واحد ومقالة واحدة ثم تولى الامر أبو بكر سنتين وستة أشهر ففزا فارس والروم وفتح اليمامة وزادت قراءة الناس القرآن وجمع الناس للمصاحف جماعتها كأبي وعمر وعثمان وعلي وزيد وأبي

زيد وابن مسعود وسالم . ولم يكن بين المسلمين اختلاف في شيء زمن خلافته ، وما كان من ظهور الاسود العنسي في صنعاء ومسيلمة باليمامة واقتسام العرب أربعة أقسام: طائفة ثابتة على الطاعة ، وطائفة مانعة الزكاة ، وطائفة مرتدة بوطائفة متوقفة متربصة لمن تكون الغلبة . فقد اخرج اليهم أبو بكر البعوث ، وجهز اليهم عصابة من المسلمين فقتل الاسود ومسيلمة ولم يمض عام واحد حتى راجع لجميع الاسلام ، فلم تكن هذه الفتن الا كنار اشتعلت فانطفأت للساعة . فبعد أن سكنت هذه الفتن احس عمر الفاروق بضرورة جمع القرآن في كتاب واحد على مشهد من جميع الصحابة وملأ من الحفظة والكتبة . ولما استقر رأي أبي بكر وعمر على ذلك احضرا زيد بن ثابت وابديا له ما عزماه . واستعظم زيد ذلك أولا واستهول قبل الجليل شأن كل مقتدر على عظائم الامور يقدر الامر حق قدره احتياط عاقل لا يغفل عما يلزم عليه في القيام باعظم المصالح عن كمال الاقتدار وواجب الاحتياط وعظيم التثبت وبالغ الجد والاجتهاد ووفور السعي . غير مغتر بما له من الخصال وان كان فردا مفردا فاقتا على أقرانه وأهل عصره . ووافق أخيرا فعزم على ما عزما عليه . والانسان مهما بلغ في الاقتدار وعلو الهمة قد يكون اذا وقع عليه أمر عظيم وعزمه وتصوره من جميع وجوهه غير غافل عن وسائل تحصيله وأسباب الوصول اليه . يعتريه طبعاً نوع من التردد وشيء يشبه التوقف . لكنه لا يلبث فيزول ويمضي للازم على عزمه وجمع أبو بكر الحفظة للمشهود لهم بالضبط والاتقان . وكان أمهم زيد وأبي بن كعب وعثمان وعلي وعبد الله بن عباس وعبد الله بن عمر وعبد الله بن الزبير وعبد الله بن مسعود وعبد الله بن السائب وخالد بن الوليد وطلحة وسعد وحذيفة وسالم وأبو هريرة والصامت وأبو زيد وأبو الدرداء وأبو موسى الاشعري وعمرو بن العاص واجتمعوا برياسة زيد بن ثابت في منزل عمر ليتشاوروا في كيفية جمعه وتخصيص أعمال كل واحد منهم . ثم أخذوا يوالون اجتماعهم في مسجد المدينة لكتابة القرآن . وكلهم كانوا يحفظونه عن ظهر قلب وكانوا قد اعتنوا قبل بكتابته جملة مرار من فاكرتهم ليتحققوا من ضبطهم له وحفظهم اياه وجاء من كان كتب مصحفا بمصحفه واحضروا كل الصحائف والقراطيس التي كتبوا فيها القرآن بحضرة النبي عليه السلام واملائه وعهدوا الى بلال ان ينادي باعلاه المدينة ان من كانت عنده قطعة عليها شيء من القرآن فليأت بها الى الجامع وليسلمها الى الكتبة المجتمعين لجمع القرآن على مشهد الصحابة . وجيء بعدد كثير من القطع ، وما كانوا يقبلون قطعة حتى يتحققوا انها

كتبت بين يدي النبي وحضرته اذ كان غرضهم ان لا يكتب الا من عين ما كتب بين يديه وما كانوا يفعلون ذلك الا مبالغة في الاحتياط ومثالاة في التحفظ وإمثالا في الضبط . وكانوا يقابلون القطع بعضها ببعض لئلا يبقى مجال شك في تمام الضبط . وكتب القرآن زيد بن ثابت جميعه . قال زيد حتى وصلنا الى آية « لقد جاءكم » من سورة التوبة فقدناها وفتشنا عنها فوجدناها مكتوبة ثم وجدناها مكتوبة عند أبي خزيمة ابن أوس بن زيد الانصاري . وقال زيد حتى وصلنا الى سورة الاحزاب فقدت آية من سورة الاحزاب حين نسخت المصحف قد كنت أسمع رسول الله يقرأ بها فالتمسناها فوجدناها مع خزيمة بن ثابت الانصاري « من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه » فألحقناها في سورتها في المصحف وتم جمعه . وجمع عمر جميع الحفظة والصحابة وقرأ عليهم . ولم يفقد من أحدهم اعتراض حين العرض . ولم يسمع ولم يظهر بعد أيضاً . وبعد اجماع أكابر الصحابة على هذا الترتيب في هذا المصحف لا يمكن ان يقال انهم رتبوا ترتيباً سمعوا النبي عليه السلام يقرأه على خلافه . واجماعهم على هذا الترتيب واقرارهم عليه بلا خلاف من أحد منهم أقوى برهان على أنهم وجدوا ما أقامهم عليه لا يدع عندهم ريبا . فتقرر أمر القرآن تقريرا قطعيا في هذا المصحف . وكان ذلك أعظم فرض قام به سلفنا الصحابة وهم نعم حقا في الاسلام وأفضل من لهم علينا الى يوم القيام . وتوفي أبو بكر وهو أعظم الناس اجراً في المصاحف وتولى الامر بعده عمر ففتحت بلاد الفرس طولا وعرضا وفتحت الشام كلها والجزيرة ومصر كلها ولم يبق بلد الا وقيت فيه المساجد ونسخت فيه المصاحف وقرأ الائمة القرآن وعلمه الصبيان في المكاتب شرقا وغربا . بقي كذلك عشرة أعوام وأشهرا والمسلمون لا اختلاف بينهم في نبيهم ملة واحدة ومقالة واحدة . والمسلمون اذ مات عمر وان لم يكن عندهم زيادة على مائة الف مصحف من مصر الى العراق الى الشام الى اليمن فما بين ذلك فلم يكن أقل من ذلك . لان الخليفة عمر الذي كان كاد يموت هما بامر المسلمين والذي حفر الخليج بعد عام الرمادة فساقه من النيل الى القلزم فلم يأت الحول حتى جرت فيه السفن فحمل فيه ما اراد من الطعام لاهل المدينة ومكة وما بينهما حقيقة هذا شأنه لم يكن ليترك بلدا فتحها ومدينة وقرية تولى أمرها بلا مصحف يقرأ فيه أهلها

« الكلام بقية »